التداولية و آفاق التحليل

الأستاذة : شيتر رحيمة

قسم الأدب العربي

جامعة محمد خيضر-بسكرة (الجزائر)

ملخص:

فتحت التداولية آفاقا جديدة أمام الدرس اللغوي، إذ قامت بتغير خارطة الاهتمامات معيدة ما همش من مواضيع للواجهة .يحاول هذا المقال فتح نافذة تطل على هذا الدرس الجديد القديم متناولا أهم الإشكالات التي أرقت المهتمين بهد الحقل اللغوي كالسياق ، و أفعال اللغة وقواعد التخاطب مدعما ما طرح بنماذج تحليلية.

Résume :

This article gives the reader some information about the pragmatics relation with communication theory, its definition and its different kinds.
It is also show him a view about the topic subjects of pragmatics which are context, speech act and cooperative principle .To make the previews concepts clear the article was illustrating by some example

يشكل التواصل الإنساني بؤرة الكثير من المعارف التقنية و الإنسانية ففي المجال التقني توالت الأبحاث لتسهيل عمليات الاتصال" فتوسع نموذج العالمين "كلود شانون" و" وارين ويفر" ليتدرج من التلغراف إلى غيره من أجهزة التواصل الآلية متجاوزا حدود الاتصال السلكي إلى الاتصال اللاسلكي"[1] ، أما المعارف الإنسانية فقد اهتم علم الاجتماع بالأدوار التفاعلية بين أفراد المجتمع، و اهتم علم النفس بتحليل سيكولوجيا المتخاطبين وذهب أبعد من هذا حين عكف على تحليل زلات اللسان و فلتات القلم . إن هذا الاهتمام (بالاتصال و التواصل) الإنساني يجعلنا نذهب إلى القول إنّ الإنسان كائن تواصلي ، هذه الكينونة تقتضي وجود أطراف تسهل عملية التواصل و لا يخفى على أحد أهمية اللغة في تحقيق التفاعل، فاللغة التي تشكل ملكا مشتركا بين جموع البشر و شكلت عنصر بحث في المعارف المذكورة أعلاه اتخذت لنفسها فضاء علميا مستقلا مع دوسوسير (علم اللغة أو اللسانيات).لقد وضعت اللغة ضمن ثنائيات سوسير مقابلا للكلام وحظيت بجل الاهتمام اهتم سوسير باللغة الموجودة بالقوة في حياتنا و أهمل الجانب الفردي منها وهو الكلام الجانب الموجود بالفعل ذلك الجانب الذي يتحقق بفضله التفاعل الإنساني .في هذا المجال تظهر التداولية درسا(جديدًا قديمًا) منح الأهمية الكبرى للكلام مركزا على قضية الاستعمال، يظهر هذا جليا مع تعريف موريس للتداولية الذي اعتبرها فرعا من فروع السيمياء، "فالسيمياء تنقسم إلى ثلاثة فروع : التراكيب ، الدلالة والتداولية.

1- تهتم التراكيب بدراسة العلاقة بين العلامات فيما بينها.

2- تهتم الدلالة بدراسة العلاقة بين العلامة و الشيء

3-و تدرس التداولية العلاقة بين العلامة و مؤوليها."[2]

إن الحديث عن العلاقة بين العلامة و مؤوليها يشير ضمنيا إلى مستخدمها فالعلامة قبل استخدامها تمر بعملية تأويل ذهني هي التي تمكن من استخدام علامة بعينها دون بقية العلامات. و استخدام العلامة يطرح جملة من التساؤلات تخص المستخدمين ،غايات الاستخدام (المقاصد) و ظروف الاستخدام (السياق) تمثلت هذه التساؤلات كما أشارت فرونسواز ارمنيكو في:

" من يتكلم؟(المتكلم/ المبدع).

مع من تتكلم ؟(المستمع / المتلقي).

لأجل ماذا نتكلم(مقاصد الكلام).

ماذا علينا ان نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى (السياق)."[3]

هذا التشعب الذي تخلفه الأسئلة السابقة يوسع دائرة التداولية لتصبح تداوليات وقد قسمت فرونسواز ارمينكو التداولية إلى ثلاث درجات:

"تداولية الدرجة الأولى: و هي دراسة الرموز الإشارية ،ولها سياق خاص هو السياق الوجودي أو الاحالي.

تداولية الدرجة الثانية :و هي دراسة تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها في الحالات العامة ،و لها سياق هو السياق الذهني بل السياق المترجم إلى تحديد العوالم الممكنة.

تداولية الدرجة الثالثة : و هي نظرية أفعال اللغة ،والسياق و هو الذي يحدد فيها التلفظ الجاد أو الدعاية"[4].

إن حضور السياق في مختلف الدرجات التي أشارت إليها ارمينكو دعا" ماكس بلاك لتسمية التداولية بالنظرية السياقية ." [5] إذن يحتل السياق أهمية كبرى في التداولية، إذ يسهم في تحديد الخيارات اللغوية من بين الخيارات

المتاحة إلى غير ذلك. إن الإشكال المطروح بخصوص السياق يتجسد في صعوبة تحديده فأين يبدأ السياق و أين ينتهي؟ بمعنى كيف نحدد العناصر السياقية؟

يشير "محمد خطابي" إلى أن العناصر السياقية "قد تتسع حسب تصنيف – هايمس– لتشمل : المتكلم ،المخاطب، المشاركون، الموضوع ،القناة، المقام ،السنن، جنس الرسالة، الحدث، المقصد .لكن ليس من الضروري الاحتفاظ بكل هذه العناصر

و يمكن حسب براون و يول الاكتفاء بما يلي : التكلم، المخاطب، الرسالة، الزمان و المكان و نوع الرسالة(.....).

"و من الضروري أن تعرف على الأقل من هو المتكلم ومن هو المستمع، و زمان و مكان إنتاج الخطاب"[6].

إذا تمكنا من تحديد عناصر السياق و حصرها في المحددات الشخصية ،المكانية ،و الزمانية فأي سياق يتم التحدث عنه؟ ،هل هو السياق الذي تم فيه الحديث؟ أم السياق المستنبط من (الحديث / النص)؟ فالنصوص تتم في سياق معيّن بمحدداته، كما أنها تزخر بمحددات سياقية ،وكما ذكرنا سابقا فقد قسمت ارمينكو التداولية إلى درجات، تتباين تبعا لتباين السياق، بهذا نكون أمام أنواع متعددة من السياق يمكن حصرها كما أشارت الجهود العلمية فيما يلي:

1-**السياق النصي (contexte as contexte)**: و هو سياق القرائن أو ما سمي بنحو النص .

2-السياق الوجودي(Existential contexte):و يتضمن هذا السياق المرجعي بطبعه (عالم الأشياء حالاتها، الأحداث) التي ترجع إليها التعبيرات اللغوية و يتم الانتقال من الدلالة إلى التداولية حالما يدرك أن المرسل و المرسل إليه، و كذلك موقعهم الزماني و المكاني هي مؤشرات للسياق الوجودي"[7] .

3-السياق المقامي(situationnel contexte):و نعبر هنا من شيء مادي خالص إلى شيء وسيط ثقافيا و يتميز المقام بالاعتراف به اجتماعيا بصفته متضمنا لغاية أو غايات و على معنى ملازم تتقاسمه الشخصيات المنتمية إلى نفس الثقافة "[8].

ومن أمثلة السياق المقامي المحادثات الدائرة مثلا بين طبيبين حول حالة مرضية ما إذ مقامهما العلمي هو الذي يحكم المحادثة.

4-سياق الفعل(Actional contexte): تعد الأفعال اللغوية أصنافا جزئية من السياق المقامي و الأفعال اللغوية أفعالا إرادية إذ يقصد المرسل إنجازها و يريد ان يدرك المرسل إليه هذا القصد"[9] إن هذه العلاقة بين المرسل و المرسل إليه يحكمها تفاعل الأطراف الذي يولد سياقا تواصليا بينها.

5-السياق النفسي (sychological contexte):ان اعتبار الخطاب فعلا و إن الفعل اللغوي قصد مشروط يؤدي إلى دمج الحالات الذهنية و النفسية في نظرية تداولية اللغة لتصبح المقاصد و الرغبات حالات ذهنية ، مسؤولة عن برنامج الفعل و التفاعل ، هذه الحالات هي مناط اهتمام الوصف و التفسير التداولي بوصفها السياق النفسي لإنتاج اللغة و فهمها ." [10]

إن هذه الأنواع المختلفة من السياق تترابط فيما بينها و تجمعها علائق لعل أهمها هو تسهيل التفسير التداولي للقضايا و المواقف التواصلية،إذن أصبح

للسياق دورٌ بالغ الأهمية في تحديد المعنى أو ترجيحه على حساب معنى آخر كما يتحكم السياق في تبدل المواقف التواصلية و تحولها من حال إلى آخر .
و لتوضيح أهمية السياق في التواصل و كيف يؤدي إلى تغيير مواقف المتخاطبين نأخذ المثال التالي من النص القرآني الكريم:

يقول عز وجل("**وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ظلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن و أعتدت لهن متكئا و آتت كل واحدة منهن سكينا و قالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه و قطعن أيديهن و قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم. قالت فذلكن الذي لمتنني فيه و لقد راودته عن نفسها فاستعصم و لئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ و ليكونا من الصاغرين).**"[11]

من خلال النص القرآني الماثل بين أيدينا نحاول أن نرصد تغير المواقف تبعا لتغير السياق إن يكشف النص عن فعل محوري هو فعل الرؤية الذي يغير مجرى الأحداث، تبعا لهذا الفعل يمكن تقسيم السياق إلى سياق قبل الرؤية و سياق بعد الرؤية.

أ-السياق القبلي: عناصره نسوة في المدينةو موضوعه" **امرأة العزيز تراود فتاها**" و يتحدد العنصر الزماني بالزمن الذي يلي المراودة، إن هذا الفعل يستدعي رد فعل من امرأة العزيز يقوم على فعلين:

1-**الإرسال** .

2- **تغير السياق القبلي** و تبديل عناصره الشخصية بإضافة يوسف عليه السلام و المكانية بتحديد المكان "**اعتدت لهن متكئا** " و رصدت لحظة زمنية

محددة "**لما رأينه**" كما أعدت عناصر ترصد بها أثر تغير السياق "**آتت كل واحدة منهن سكينا** " إن اللحظة الزمنية التي رصدتها " –فلما **رأينه** – تبرز تغيير موقف المتكلمات سابقا . "**فلما رأينه أكبرنه و قطعن أيدهن و قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم** " .

إن ردة فعل امرأة العزيز حيال ما يقال لم تكن مرتكزة على القول بقدر ما ارتكزت على تغيير موقف النساء تبعا لتغيير السياق الذي وضعتهن فيه فحولت السياق من سياق عدم الرؤية الذي مكن النساء من التطاول، إلى سياق الرؤية الذي مكن امرأة العزيز من رصد أثر السياق الجديد ،إن إفحام النسوة وتغيير موقفهن تم انطلاقا من الفعل الذي قامت به امرأة العزيز و الذي ركز على وضع النسوة في السياق الذي وضعت فيه ،و هو سياق رؤية يوسف عليه السلام.

إذن يتضح جليا من خلال ما سبق أثر السياق في عملية التخاطب و تأثيره في المواقف بتعديلها أو تبديلها، و إن الاهتمام بالسياق في التحليل التداولي رافقه اهتمام آخر ، إنه الاهتمام بما تحدثه اللغة من أثر في مستعمليها فاللغة حسب "أوستين" لم تعد وسيلة تواصل فحسب، بل هي وسيلة للتأثير في الواقع و تغيير السلوك و المواقف . يتم بفضلها إنجاز جملة من الأفعال وهو ما يعرف بأفعال اللغة أو الأفعال الكلامية" وقد أصبح هذا المفهوم (الفعل الكلامي speech act) : نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية فحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي و تأثيري"[12]

وقد قسم" أوستين" الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام:

1–"فعل القول': و يراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم و ذات دلالة.

2- 'الفعل المتضمن في القول' :هو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ إنه عمل ينجز بقول ما."[13]

وفي المثال السابق نجد امرأة العزيز ضمنت قولها " **اخرج عليهن** " فعلا يتجسد في خروج يوسف عليه السلام على النسوة .

3"-الفعل الناتج عن القول'الفعل التاثيري ' : بواسطة فعل القول و ما يصحبه من فعل متضمن في القول قد يكون الفاعل - و هو الشخص المتكلم بفعل ثالث وهو التأثير على المخاطب بإقناعه و إرشاده"[14]

" و قد لا تكتمل دائرة التأثير إلا عند حدوث رد فعل من المرسل إليه مثل الاستجابة للأمر مثلا"[15]

و لتوضيح فكرة الفعل الكلامي أكثر نأخذ المثال التالي :

"قال رجل من اليهود لعلي بن أبي طالب : ما دفنتم نبيكم حتى قالت الأنصار منا أمير و منكم أمير فقال علي كرم الله وجهه : و أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم **'اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** "[16]"[17].لقد أنجز اليهودي فعل التحقير من خلال قوله و أنجز علي فعل حجاجيا من خلال قوله أيضا ،و لقد ركز علي كرم الله وجهه في إنجاز فعله الحجاجي على تحليل قول اليهودي الذي أطلق الكلام نقلا عن المسلمين قالت الأنصار. وحدد الزمن بموت الرسول صلى الله عليه وسلم فكان كلام علي منقولا أيضا

و لكن مع توثيق المصدر (القرآن الكريم) . و تحديد الزمن بعد أن نجى الله اليهود من فرعون، إذن لجأ علي في محاجة اليهودي إلى الاعتماد على قوله، فقد حدد اليهودي موضوع خلاف المسلمين بأمر دنيوي و بعد مصيبة هي موت الرسول ،وحدد علي موضوع خلاف اليهود بأمر إلهي و بعد نعمة

أنعمها الله عليهم و شتان بين الموقفين إذن نجد الفعل الكلامي يتجسد بمستويين:

المستوى الأول : قول اليهودي(ما دفنتم نبيكم حتى قالت الأنصار منا أمير و منكم أمير) و يمكن رصد الأفعال التي تشكل الفعل الكلامي وفق النحو التالي:

1-**فعل القول :** الذي يجسده المستوى الصوتي و التركيبي و الدلالي للجملة.

2- **الفعل المتضمن في القول :** إن الجملة السابقة الذكر تتجاوز تقرير الحقيقة إلى فعل التحقير و الإقلال من شأن المسلمين بتحديد اهتمامهم الذي انصب على الخلافة .

3- **الفعل الناتج عن القول :** يتجسد في المثال عن طريق توليد فعل كلامي آخر بعناصر مماثلة للفعل الكلامي الأول و هذا ما يشكل المستوى الثاني من الفعل الكلامي، يتجلى الفعل الكلامي الثاني في قول علي كرم الله وجهه – و أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى "قلتم اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة" و عناصره هي :

1- **فعل القول:**(الجملة بمستوياتها الصوتي و التركيبي و الدلالي)

2- **الفعل المتضمن في القول :** وهو فعل الرد على اليهودي فعلي كرم الله وجهه لا يقرر من خلال كلامه حقيقة، و إنما ينجز فعلا هو محاجة اليهودي.

و الفعل الناتج عن القول الذي تجسد في سكوت اليهودي لإفحامه من طرف علي .

و جدير بالذكر أن الفعل الكلامي الذي أنتجه علي هو رد فعل للفعل الكلامي الذي أنتجه اليهودي .

إن أفعال الكلام بهذا الشكل ترصد العلاقات بين المتخاطبين، هذه العلاقات التي يحكمها الحوار الهادئ أحيانا و يحكمها أحيانا أخرى منطق الصدام فما هي الآليات التي تسهم في نجاح عملية تواصلية معينة.

في هذا الصدد نجد جملة من المبادئ التي وضعها- قرايس -و أطلق عليها مبادئ التعاون التي تسعى لضمان حوار فعال تتلخص هذه المبادئ في :

1-الكمية (quantité)

2-الكيفية(qualité)

3- العلاقة(relation)

4- الطريقة(modalité)

"و حسب مبادئ -قرايس- يستعمل المتكلم الوسائل اللغوية التي تناسبه لتنسيق أفعال المتكلم مع أفعال المستمع . بالاستعانة بالوسائل التي يراها أجود بمعنى أن ينطق بملفوظات حقيقية، مميزة ، معقولة، واضحة و موجزة ."[18]

إن مبادئ التعاون التي أشار إليها -قرايس- تتفرع إلى قواعد فرعية :

1- "قاعدة كم الخبر :

أ- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته .

ب- لتجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب .

2- الكيفية:

أ- لا تقل ما تعلم كذبه .

ب- لا تقل ما ليس لك عليه بينة.

3- العلاقة :

ليناسب مقالك مقامك

4- قاعدة الطريقة لجهة الخبر

أ- لنحترز من الالتباس .

ب- لنحترز من الإجمال.

ت- لنتكلم بإيجاز .

ث- لترتب كلامك ."[19]

إن هذه القواعد التي صاغها قرايس أخذت وجهة أخرى مع روبين لاكوف، إذ ردت أصول نجاح العملية التخاطبية إلى مبدأ واحد هو مبدأ التأدب . ويذهب "ليتش" إلى وضع مقارنة بين مبادئ -قرايس- و ما سماه مبادئ التأدب الأقصى "و يصور هذه المبدأ في صورتين اثنتين إحداهما سلبية هي قلل من الكلام غير المؤدب . و الثانية إيجابية هي أكثر من الكلام المؤدب ".[20]

إن المبادئ المذكورة أعلاه قابلة للاستثمار في ميادين عدة كالإشهار السياسة و التعليم، إذ تحتاج العناصر الفاعلة أو المتكلمة في تمرير خطاباتها إلى آليات توفرها تلك المبادئ.

إذن نصل إلى القول إن التداولية منهج يحمل آفاقا واعدة في التحليل لخصوبة المجالات التي يجتاحها و التي تتعلق بالتخاطب و إبلاء الأهمية للظروف التي يتم فيها التخاطب و كذا اعتبار التخاطب أو التكلم فعلا إنجازيا.

الهوامش

[1] –إدريس بالمليح –المختارات الشعرية و أجهزة تلقيها عند العرب – منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية –الرباط– 1995 ط1 – ص 19

[2] – George yole –pragmatics – oxford university press New York – 2nd imp.p4 2000.

[3] –فرونسواز ارمينكو .تر سعيد علوش المقاربة التداولية – مركز الإنماء القومي– المغرب دط دت ص 5

[4] –ينظر نفسه ص 38

[5] –نفسه ص11

[6] –محمد خطابي :لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب المركز الثقافي العربي الدار البيضاء /المغرب 1991ط1 ص 297

[7] –ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية –دار الكتاب الجديد بيروت لبنان 2004ط1ص42.43

[8] – علي ايت أوشان : السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة –دار الثقافة للنشر و التوزيع /الدار البيضاء –المغرب س2000 ط1 ص60

[10] – نفسه ص 44

[11] – سورة يوسف الآية 30–32

[12] – مسعود صحراوي – التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال اللغوية في التراث اللساني العربي /دار الطليعة –بيروت لبنان س2005 ط1.

[13] –ينظر نفسه ص42

[14] –ينظر نفسه ص42

[15] - عبد الهادي بن ظافر الشهري ص 75

[16] – الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن كتاب الأذكياء دار المفكرين بيروت لبنان ص 153

[17] – سورة الأعراف الآية 138

[18] – نور الدين رايس نظرية التواصل و اللسانيات الحديثة رسالة ماجستير مخطوطة جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس مغرب ص 292

[19] – طه عبد الرحمن اللسان و الميزان المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب 1998 ط1 ص 238

[20] –نفسه ص 246